الأدب وتطوره

الأستاذ أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم

معناه فى الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق الكلمة . دلالتها الخلقية .
مناقشة آراء فى اشتقاق المعنى الخلقى .
معناه فى العصر الأموى . دلالته الثقافية . اشتقاق المعنى الجديد .
معناه فى العصر العباسى الأول . اتساع الدلالة الثقافية .
معناه فى العصر العباسى الثانى . ضيق الدائرة الثقافية .
دلالة أخرى للكلمة أحيانا فى العصر العباسى .

— ١ —

دلت كلمة الأدب فى العصر الجاهلى على الدعاء للأدبة ، فالآدب هو الداعى إلى المآدب ، قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ثم توسعوا فى معناها فاشتقوا منها الأدب بمعنى الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ، لأن العرب يحيون فى بادية مقفرة شحيحة بالزاد ، فتمدحوا بالقرى ، وبالغوا فى الحفاوة بالضيف حتى تخرق فيها بعضهم ، فكان من الطبيعى أن ينتقلوا من معنى الأدب الحسى المادى إلى ذلكم المعنى النفسى الخلقى .

ولسنا نستطيع أن نحدد الوقت الذى نشأ فيه هذا التجوز ، وإن كنا نجد فى العصر الجاهلى نصوصا تدل عليه ، منها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند

يصف لها خاطبها — وكان أبا سفيان ولم يسمه أبوها « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وردها عليه « وإني لآخذه بأدب البعد مع لزوم قبتي . وقلة تلفتي » (١)

وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري في كلامه على المثل « ويل للشجي من الخلي » قوله : « المثل لأكثم بن صيفي ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب له كتابا جاء في رد المصطفى عليه قوله : « بآدابه المرسلين » ولعل أصل الجملة أدب أو بعث بآدابه المرسلين (٢)

وقد ساير الكلمة مدلولها الخلقي إلى صدر الإسلام ، ومنه الحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقول النبي عليه الصلاة والسلام « القرآن مأدبة الله في الأرض » (٣) وقول سيدنا عمر لابنه : « يابني انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول علي رضي الله عنه : « وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا » (٤) وقوله : « قد لبس للحكمة جنتها ، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمعرفة بها ، والتفرغ لها (٥) وقول حجر بن عدي الشهيد للامام علي « يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك »

ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المآدب ، وعرضوا آراء لا نقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالي الأستاذ نلينو يشتقها من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب جمعت على أدآب ثم قلب الجمع إلى آداب كما جمعت بئر وريم على أبآر وأرآم ثم قلبت إلى آبار وآرام ، واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب وهذا فرض ، وتكلف لا نقره .

---

(١) الأمالي ج ٢ ص ١٠٤ ، ٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ طبعة بمبي ، وبينهما وبين الطبعة التي على هامش أمثال الميداني فروق (٣) لسان العرب مادة أدب (٤) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٥٣٦ تستوسقوا : تجتمعوا (٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣٥

١ — لأن آبار وآرام لم يشتق منهما مفردان تتكون الصلة بينهما وبين بئر ورئم كالصلة بين أدب ودأب فى الحروف والمعنى .

٢ — لم يذكر شبيها لهذا الاشتقاق فى اسم معنى قدمت عينه على فائه فى الجمع ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ — لم يرد فى معجم أو نص أن جمعت كلمة الدأب أو الدأب على أدآب ، ولكن ورد فى كتب اللغة جمع بئر على أبآر وآبار ، وجمع رئم على أرآم وآرام .

٤ — لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسنا أو قبيحا والأدب خلق كريم فى أول معانيه .

والدكتور طه حسين يحار فى الاهتداء إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأياً من الآراء بعد أن مال إلى رأى الاستاذ نلينو ودان به ، فيفترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الاصيل ضاعت . وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الخيال والفرض لا يبنى ولا يهدم.

والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهذب وقلبت الهاء همزا كما فى هيا وأيا وهراق وأراق ، ويضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الاصل لا فعلا ولا اسماً .

ويرى الأب أنستاس الكرملى أن الأب ، صفة الأديب الواردة فى اللغة اليونانية باللفظ والمعنى ، فمن معانى الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق .[1] لكن هذا الرأى محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان فى لغة السومريين الذين عمروا جنوبى العراق فى فجر التاريخ ، ومما لا مساغ للشك

---

(١) المقتطف مارس سنة ١٩٣٣ ص ٢٢٢ مقال للأستاذ مصطفى جواد .

فيه أن قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، فغزتهم وأخضعتهم ، واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا نظن أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ؟ ثم تحولت إلى آدم ، واستعملت كذلك فى اللغات السامية، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة فى الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذى استكمل مزايا الإنسانية من حر الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة، كما نقول اليوم فلان آدمى وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمان على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . ومما يساعد هذا الفرض قول التبريزى فى شرح الحماسة : كان الأدب اسما لما يفعله الانسان فيتزين به فى الناس »[1]

ومع تقديرى للاستاذ وتحرزه فى عرض هذا الفرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذاً الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس . وليس فى اللغة أثارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزى نفسه صريحة فى أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل فى الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال .

وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة فى غير جنسها ، وأمها فى اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباكا لاصطياد جديد ، وأقوى منه ذلكم الرأى التليد الوطيد .

— ٣ —

وفى العصر الأدبى ظل هذا المعنى الخلقى الصرف حياً شائعا ، ومنه قول سالم بن وابصة الاسدى :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفا عاقلا ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذراً

(١) فى أصول الادب ص ٨ .

وقول مزاحم العقيلي في وصف الابل :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل[1]

ومنه قول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : أدبهم برواية شعر الأعشى ، فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره .

ولكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، ذلكم هو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب ، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة ممتازة من الأساتذة سموا المؤدبين ، ومنه قول معاوية : « اجعلوا الشعر أكثر همكم ، وأكثر آدابكم ، فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم » وسمى الملمون بهذه الثقافة أدباء أيضا ، قال أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكري كما ذكر المبرد في مدح الخوارج :

أدباء إما جئتهم خطباء ضمناء كل كتيبة جرار[2]

على أنه كانت في العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب ، هي القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتلكم هي الثقافة الشرعية أو الدينية .

فمن أين اشتق هذا المعنى الجديد للأدب؟

جرى الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة ولكني أرى أن المعنى الجديد إنما جاء من الأدب وهو الأمر العجيب ، قال الأصمعي : جاء فلان بأمر أدب أي عجيب ، وأنشد :

سمعت من صلاصل الأشكال أدباً على لباتها الحوالي

أو من الأدب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حبة الاسدي :

بشمجى المشي محجول الوثب غلابة للناجيات الغلب

حتى أتى أزبها بالأدب[3]

(١) الأديب والمؤدب : البعير المذلل الانقاد (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٠٩

(٣) لسان العرب مادة أدب . الشمجى : الناقة السريعة . الازبي : السرعة والنشاط

فالأدب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجب ، والصلة بين الأدب بمعناه الفنى وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ، لأن الأدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأيي هذا أن بعض الشعر الذى كان يدرس ويروى على أنه أدب — حافل بالمجون والغزل الفاحش والخمر كشعر طرفة وامرىء القيس والاعشى ، فاشتقاق المعنى من الادب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للادب ومسايرة له من اشتقاقه من الأدب بمعنى الخلق الكريم .

وإذاً فالأدب بمعنى الدعاء للمأدبة أصـــل للأدَب بمعنى الخلق العظيم ، والأدَب بمعنى العجيب والعجب أصل لذلكم الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر

— ٣ —

وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العباسى الأول أو فى القرن الثانى والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسمائها . فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب فى الادب بهذا المعنى مثل البيان والتبيين للجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ والكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعيون الاخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وطبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ وأنتم تجدون مثلا فى كتاب الكامل شعرا ولغة وصرفا ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لانهم فهموا الادب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة .

ولم يكن الأدب ثقافة المسلمين الوحيدة فى ذلكم الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ، واتسعت دائرتها عما كانت عليه فى القرن الاول ، فتفرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم

الحديث ، وإلى الفقه وأصوله ، والكلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك . . .

ولكن الادب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية وتلك دينية . على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الالسنة وأسلات الاقلام ، فان الجاحظ مثلا فى البيان والتبيين عقد فصولا فى الادب منها (كلام فى الادب) ذكر به عدة حكم ووصايا مما يهذب الاخلاق[1] ، وذكر لابن هرمة أبياتاً فى الرثاء منها بيت يمدح المرثى بالكرم وحسن أخلاق الخدم فى لقاء الضيوف :

هش إذا نزل الوفود ببابه سهل الحجاب مؤدب الخدام[2]

وابن المقفع سمى كتابين له فى الاخلاق (الادب الكبير) و (الادب الصغير) وقد توفى سنة ١٤٢ هـ .

— ٤ —

وقد كان النقد يتدرج فى نضجه وارتقائه منذ القرن الثالث ، ونهض علما مستقلا متميزاً من الآدب فى القرن الرابع ، وسمى بلاغة حينا وبيانا حينا وبديعا حينا ، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوى والنحوى فيما يروون ويدونون ، فضاقت دائرة الأدب التى كانت رحبة شاملة فى القرنين السابقين ، وانحسر لفظ الأدباء عن العلماء ، واستقل به الكتاب والشعراء ، لأن العلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله ، حتى قالوا : ختم تاريخ الأدباء بثعلب والمبرد ، وكانت وفاة المبرد ٢٨٥ هـ وثعلب ٢٩١ هـ وهم يقصدون بالأدباء هنا الملمين بالثقافة العربية جملة ، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد ، وهذا هو معناه فى كل اللغات الآن .

— ٥ —

على أن هذه الكلمة دلت فى العصر العباس أحيانا على معنى أوسع من

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٦ . (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٠

ذلكم كله ، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية ، فالفلسفة أدب ، والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو المثقف المستنير اللبق، قال الوزير الحسن بن سهل ، المتوفى ٢٣٦ هـ « الآداب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس »[1]

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة، وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده ابن أبي كريمة :

ألا زعمت عفراء بالشام أنني ... غلام جوار لاغلام حروب
وإني لأهدى بالأوانس كالدمى ... وإني بأطراف القنا للعوب
وإني على ما كان من عنجهيتي ... ولوثة أعرابيتي لأديب[2]

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوي الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها ، فأدخل في الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية ، متأثرا بأرسطو ، فقد سمى العلوم الرياضية الآداب ، في تقسيمه للعلوم المأثور عنه[3].

وأدخل إخوان الصفا في عداد العلوم الرياضية التي سميت الآداب أحيانا: السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة[4].

(١) زهر الآداب جـ ١ ص ١٤٢
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٩
(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٥٣٣
(٤) الرسالة السابعة جـ ١

وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغانى من أرقى فنون الأدب ، وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ هـ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون « وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به ، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه » .

وقال « يجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به مايقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ... فالأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[1]

وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب فى قوله :

إن شئت تعلم فى الآداب منزلتى ... وأنى قد عدانى العسر والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى ... والعود والنرد والشطرنج والقلم[2]

أحمد محمد الحوفى

---

(١) المقدمة من ٤٨٨ ـ ٤٨٩

(٢) الأوهاق : الحبال القوية ترمى فى أنشوطة لتؤخذ بها الدابة والانسان ، وغرض الشاعر حرف الكدية التى ينال بها .